الدرس المقارن مفاهيم ومتطلبات

Comparative Study: Concepts and Requirements



د. بلخياطي الحاج لونيس*

جامعة تيسمسيلت أحمد بن يحي الونشريسي - الجزائر-

lounisbelkhiati@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2025/12/31 تاريخ القبول: 2026/02/26

****

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى الحفر في أبعاد الدرس المقارن بوصفه أداة معرفية لدراسة الأدب عبر الثقافات واللغات المختلفة. وتركز على توضيح المفاهيم الأساسية، مثل المقارنة، التأثير، التلقي، والنموذج الأدبي، مع التأكيد على ضرورة وضوح هذه المفاهيم لدى الباحث، كما يتناول المتطلبات المنهجية للدرس المقارن؛ بدءًا من اختيار النصوص بعناية، مرورًا بتحديد الأجناس الأدبية، الموضوعات، والتيارات الثقافية، وصولاً إلى ضرورة الاستناد إلى أدوات تحليل دقيقة تمكّن الباحث من رسم علاقة بين النصوص بطريقة علمية.

وتبرز أهمية إدراك الصلات التاريخية والثقافية بين النصوص، مع مراعاة فروق اللغة والبيئة الثقافية، لتفادي المقارنة السطحية أو الانطباعية. في النهاية، نؤكد أن الدرس المقارن ليس مجرد موازنة بين نصوص، بل مشروع معرفي يثري الأدب الوطني والعالمي معًا، ويعزز فهم التبادل الثقافي بين الشعوب.

الكلمات المفتاحية: المقارنة؛ التأثير والتلقي؛ الاختلاف الثقافي؛ الأجناس الأدبية؛ المنهجية العلمية.

Abstract:

This study seeks to explore the dimensions of comparative study as an epistemological tool for examining literature across different cultures and languages. It focuses on clarifying key concepts such as comparison, influence, reception, and the literary model, while emphasizing the necessity of the researcher's clear understanding of these concepts. The study also addresses the methodological requirements of comparative research, beginning with the careful selection of texts, moving through the identification of literary genres, themes, and cultural movements, and culminating in the use of precise analytical tools that enable the researcher to establish scientifically grounded relationships between texts.

The paper highlights the importance of recognizing historical and cultural connections among texts, while taking into account differences in language and cultural environment in order to avoid superficial or impressionistic comparisons. Ultimately, it argues that comparative study is not merely a juxtaposition of texts, but an epistemological project that enriches both national and world literature and enhances understanding of cultural exchange among peoples.

Key words: Comparison; Influence and Reception; Cultural Difference; Literary Genres; Scientific Methodology.

*د. بلخياطي الحاج لونيس

مقدمة:

في عصر تشابكت فيه الثقافات وتداخلت فيه الآداب بشكل غير مسبوق، لم يعد من الممكن فهم أي أدب قومي بمعزل عن سياقه العالمي الأوسع. من هذا المنطلق، يكتسب "الدرس المقارن" أو "الأدب المقارن" أهمية متزايدة، لا بوصفه فرعاً من فروع الدراسات الأدبية فحسب، بل كمنهجية معرفية ورؤية للعالم. إنه الحقل الذي يجرؤ على عبور الحدود اللغوية والقومية والثقافية، ليس بهدف إثبات تفوق أدب على آخر، بل سعياً لكشف شبكة العلاقات المعقدة، والتقاطعات الخفية، والحوارات الصامتة التي تربط بين النصوص الإنسانية على اختلاف ألسنتها ومنابتها.

لكن هذا المشروع المعرفي الطموح لا يمكن أن يتحقق بالانطباعات العابرة أو الموازنات السطحية. إنه يتطلب صرامة منهجية، ووعياً نقدياً حاداً، وإلماماً عميقاً بالمفاهيم المؤسسة التي تطورت عبر تاريخ هذا الحقل. فمفاهيم مثل "التأثير" و"التلقي" و"الأدب العالمي" ليست مجرد مصطلحات تقنية، بل هي أدوات إجرائية ونظرية تحمل في طياتها رؤى مختلفة لطبيعة العلاقة بين الآداب. كما أن الانتقال من مجرد رصد التشابهات إلى تحليل دلالاتها الثقافية والتاريخية يقتضي من الباحث المقارن امتلاك أدوات تحليل دقيقة، ووعياً بخصوصية كل سياق ثقافي، وبإشكالية الترجمة كوسيط لا يمكن الاستغناء عنه ولكنه ليس بريئاً أبداً.

يهدف هذا البحث إلى الغوص في قلب الدرس المقارن، عبر تفكيك مفاهيمه الأساسية ورصد متطلباته المنهجية. سننطلق في محورنا الأول من تحديد الأسس المفاهيمية، مروراً بإشكاليات التأثير والتلقي، وصولاً إلى علاقة الأدب المقارن بفكرة "الأدب العالمي". وفي المحور الثاني، سننتقل إلى الجانب الإجرائي، حيث سنبحث في متطلبات بناء متن مقارن متماسك، ومستويات التحليل الممكنة، والأدوات المنهجية المتاحة. أما المحور الثالث والأخير، فسيكرس لبحث الأبعاد المعرفية والغايات الحضارية للدرس المقارن، مؤكداً على أهمية ربط النص بسياقه، والتعامل الواعي مع الاختلاف الثقافي، وصولاً إلى الهدف الأسمى المتمثل في بناء كونية أدبية حوارية تثري الآداب القومية وتعمق فهمنا المشترك للتجربة الإنسانية.

المبحث الأول: الأسس المفاهيمية للدرس المقارن

يُعنى هذا المحور بتأصيل المفاهيم المركزية التي يقوم عليها حقل الأدب المقارن، متتبعاً تطورها التاريخي والنظري، وموضحاً الفروقات الدقيقة بينها، بما يمنح الباحث أساساً نظرياً صلباً للانطلاق في دراساته.

المطلب الأول: مفهوم المقارنة: من الموازنة الشكلية إلى الحوار الثقافي

المقارنة هي جوهر الدرس المقارن، لكن مفهومها لم يكن ثابتاً على مر تاريخ الحقل. لقد تطور بشكل كبير من مجرد موازنة شكلية بين نصين إلى رؤية أكثر عمقاً تعتبرها كشفاً عن حوار ثقافي.

في بداياته، خاصة مع المدرسة الفرنسية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، كان الدرس المقارن يرتكز على منهج "وضعي (Positivist) "صارم. كانت المقارنة تقتصر على النصوص التي توجد بينها "صلة تاريخية مادية" ومثبتة(Lien de fait) ، مثل الترجمة، أو الاقتباس، أو تأثر كاتب بآخر

بشكل مباشر (تيجم، 1931، صفحة 65). كانت المقارنة هنا أشبه بعملية تحقيق بوليسية تهدف إلى تحديد "الدائن" و"المدين" في العلاقات الأدبية، وغالباً ما كانت تخدم، بوعي أو بغير وعي، نزعات قومية تهدف إلى إبراز مدى "تأثير" الأدب القومي (الفرنسي غالباً) في الآداب الأخرى (بيشوا و أندريه، 1987، صفحة 98) . كانت المقارنة في هذه المرحلة أداة لرسم خرائط التأثير والتأثر، مع تركيز أقل على القيمة الجمالية أو الدلالة الثقافية العميقة للتشابهات.

لكن هذا المفهوم الضيق للمقارنة تعرض لنقد شديد، خاصة من قبل المدرسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية. قاد هذا النقد رواد مثل رينيه ويليك وأوستن وارين، اللذين رفضا حصر المقارنة في العلاقات المادية فقط. ودعوا إلى مقارنة النصوص على أساس "التشابهات النوعية (Typological Similarities) " والجمالية، حتى لو لم تكن هناك صلة تاريخية مباشرة بينها (ويليك، 1958، صفحة 47). فتح هذا التحول الباب أمام مقارنة الأساطير، والبنى السردية، والأنماط الأدبية (Archetypes) في آداب متباعدة جغرافياً وتاريخياً، مثل مقارنة بنية الملحمة في "الإلياذة" و"المهابهاراتا". أصبحت المقارنة هنا أداة للكشف عن "وحدة التجربة الإنسانية" وتجلياتها المختلفة في الفن الأدبي (فراي، 1957، صفحة 112).

في العقود الأخيرة، ومع صعود النقد الثقافي ودراسات ما بعد الكولونيالية، اتخذ مفهوم المقارنة بعداً جديداً وأكثر نقدية. لم تعد المقارنة تهدف إلى إثبات الوحدة الإنسانية أو رسم خرائط التأثير، بل أصبحت أداة "لتفكيك علاقات القوة" الكامنة في التبادل الثقافي. المقارنة اليوم تعني وضع النصوص في "حوار" نقدي، ومساءلة كيف تم تمثيل ثقافة ما في أدب ثقافة أخرى، وكيف أن عمليات الترجمة والتلقي ليست بريئة، بل هي محكومة بسياقات تاريخية وسياسية. يرى المنظر "فريدريك جيمسون" أن المقارنة يجب أن تكشف عن "المكبوت السياسي" في النصوص (جيمسون، 1981، صفحة 20). إذن، انتقلت المقارنة من كونها "موازنة " (Juxtaposition)إلى "مواجهة (Confrontation) "نقدية، ومن البحث عن التشابه إلى تحليل "دلالة الاختلاف" (مستجير، 2011، صفحة 85) .

المطلب الثاني: إشكاليات التأثيروالتلقي: نماذج ونظريات

يعد مفهوما "التأثير (Influence) "و"التلقي (Reception) "من أكثر المفاهيم حساسية وإثارة للجدل في الدرس المقارن.

التأثير:(Influence)

كان مفهوم التأثير هو حجر الزاوية في المدرسة الفرنسية التقليدية. وقد ارتبط بنظرة ميكانيكية للعلاقات الأدبية، حيث يُنظر إلى النص "المؤثِّر (Source) "على أنه يمارس فعلاً مباشراً على النص "المتأثِّر .(Target) " وقد أدى هذا المفهوم إلى ظهور دراسات "مصادر" الكُتاب، التي كانت أحياناً تبالغ في تتبع الاقتباسات والتلميحات، وتقلل من إبداع الكاتب المتلقي، وتصوره كمنفعل سلبي (لومارشون، 1988، صفحة 54). هذا المنهج، الذي أطلق عليه البعض "عقدة الدائن والمدين(Creditor-Debtor Complex) "، تعرض للنقد لأنه يتجاهل أن الكاتب المبدع لا "يتلقى" التأثير بشكل سلبي، بل "يختار" ما يناسب مشروعه الفكري والجمالي

ويقوم بتحويله وتطويعه. لقد أظهر بلوم في نظريته عن "قلق التأثير" أن العلاقة مع السلف الأدبي ليست علاقة امتنان بسيطة، بل هي صراع إبداعي معقد.

التلقي:(Reception)

كتطور ونقد لمفهوم التأثير، برزت "نظرية التلقي" أو "جمالية التلقي (Reception Theory) "في ألمانيا مع مدرسة كونستانس (هانز روبرت ياوس، وولفغانغ إيزر). نقلت هذه النظرية بؤرة الاهتمام من "الكاتب المؤثّر" إلى "القارئ المتلقي" أو "الثقافة المتلقية". فبدلاً من أن نسأل "كيف أثر شكسبير في الأدب العربي؟"، أصبح السؤال: "كيف تم تلقي شكسبير وتأويله وتحويله داخل السياق الثقافي العربي؟" (كوفمان، 2006، صفحة 77). التلقي ليس عملية سلبية، بل هو "فعل إنتاجي" يعيد فيه الجمهور المتلقي بناء معنى النص وفق "أفق توقعه(Horizon of Expectations) "، وهو مجموعة المعايير الجمالية والثقافية السائدة في لحظة التلقي (ياوس، 1982، صفحة 23).

هذا التحول من التأثير إلى التلقي كان له أثر كبير على الدرس المقارن. فقد سمح بفهم أعمق لعملية التبادل الثقافي، مبيناً أن النص الأجنبي عندما يدخل ثقافة جديدة، فإنه يخضع لعملية "تبيئة" (Domestication)و"تكييف (Adaptation) "ليصبح جزءاً من نسيجها الثقافي. فمسرحيات شكسبير التي عُرضت في مصر في أوائل القرن العشرين لم تكن هي نفسها مسرحيات شكسبير في لندن، بل أصبحت "شكسبير مصرياً" تم تكييفه ليناسب الذوق والمناخ الفكري المحلي (الموسوي، 2014، صفحة 129) .

المطلب الثالث: الأدب العالمي والأدب العام: تحديد المجال ورسم الحدود

غالباً ما يتم الخلط بين الأدب المقارن ومفهومين مجاورين له: الأدب العام والأدب العالمي. وتوضيح الحدود بينها ضروري لمنهجية البحث.

الأدب العام:(General Literature)

يُعنى الأدب العام بدراسة الظواهر الأدبية التي تتجاوز حدود أدب قومي واحد، ولكنه لا يشترط بالضرورة المقارنة بين لغتين أو ثقافتين مختلفتين. هو يدرس التيارات الأدبية الكبرى (مثل الكلاسيكية، الرومانسية، الحداثة) كما تتجلى في آداب متعددة تنتمي غالباً إلى نفس الدائرة الحضارية (الأوروبية مثلاً). كما يدرس نظرية الأدب، ونظرية الأجناس الأدبية، وعلاقة الأدب بالفنون الأخرى (الرسم، الموسيقى). يمكن القول إن الأدب العام هو الجانب النظري والتاريخي الذي يدرس الظواهر المشتركة، بينما الأدب المقارن هو الجانب التطبيقي الذي يركز على "فعل المقارنة" الثنائية أو المتعددة بين نصوص محددة (براز، 1970، صفحة 211).

الأدب العالمي:(World Literature)

يعود هذا المفهوم إلى غوته في عام 1827(Weltliteratur) ، الذي رأى أن الآداب القومية بدأت تفقد أهميتها وأن عصر الأدب العالمي قد حان. لكن مفهوم الأدب العالمي نفسه تطور كثيراً.

المفهوم الكلاسيكي: يرى الأدب العالمي على أنه "مجموعة من روائع الأدب (a canon of masterpieces) " التي تجاوزت أصلها القومي وأصبحت ملكاً للإنسانية جمعاء (مثل أعمال هوميروس، شكسبير، دوستويفسكي). هذا المفهوم نخبوي وانتقائي (شوقي، 1999، صفحة 45).

المفهوم الحديث: يرى منظّرون مثل ديفيد داموش أن الأدب العالمي ليس مجرد قائمة من الروائع، بل هو "شبكة من العلاقات" و"طريقة للتداول .(a mode of circulation) "فالعمل الأدبي يصبح جزءاً من الأدب العالمي عندما "يتداول خارج ثقافته الأصلية، سواء في الترجمة أو في لغته الأصلية" (داموش، 2003، صفحة 281). هذا التعريف يركز على ديناميكية الحركة والترجمة والتلقي.

المفهوم النقدي: يرى منظرون مثل فرانكو موريتي أن الأدب العالمي هو "نظام غير متكافئ an unequal) " (system، تهيمن عليه أشكال أدبية نشأت في المركز (أوروبا) ثم انتشرت في الأطراف (بقية العالم)، مع تكييفات محلية. هو يدعو إلى دراسة هذا النظام ككل، وليس فقط أعمالاً فردية (موريتي، 2000، صفحة 55).

علاقة الأدب المقارن بالأدب العالمي جدلية. فالأدب المقارن هو "الأداة المنهجية" لدراسة الأدب العالمي. فلكي نفهم كيف يتداول عمل ما ويصبح عالمياً، نحتاج إلى أدوات الدرس المقارن لتحليل ترجماته وتلقيه في ثقافات مختلفة (الصباغ، 2018، صفحة 90). وفي الوقت نفسه، فإن توسع مفهوم الأدب العالمي يدفع الأدب المقارن إلى تجاوز المقارنات الثنائية التقليدية (فرنسي/ألماني) والانفتاح على دراسة العلاقات بين آداب الجنوب-الجنوب أو بين آداب المركز والأطراف.

المبحث الثاني: المتطلبات المنهجية والأدوات الإجرائية

بعد توضيح المفاهيم النظرية، يتناول هذا المحور الجانب العملي من الدرس المقارن، مستعرضاً الخطوات والمتطلبات التي يجب على الباحث الالتزام بها لضمان الطابع العلمي والمنهجي لدراسته.

المطلب الأول: أسس اختيار المتن المقارن: من التجاور العفوي إلى المقارنة المبررة

إن الخطوة الأولى والأكثر حسماً في أي دراسة مقارنة هي اختيار النصوص أو الظواهر التي ستتم مقارنتها، أي بناء "المتن .(Corpus) "الاختيار العشوائي أو القائم على تشابهات سطحية يؤدي حتماً إلى نتائج انطباعية وغير علمية. لذلك، يجب أن يستند الاختيار إلى مبرر منهجي واضح. هناك أساسان رئيسيان للاختيار:

أساس العلاقات التاريخية) المنهج الجيني :(Genetic/وهو الأساس الذي اعتمدته المدرسة الفرنسية. هنا، يتم اختيار نصين أو أكثر لوجود صلة سببية أو تاريخية مباشرة بينهما. يمكن أن تكون هذه الصلة:

صلة تأثير مباشر: كاتب قرأ كاتباً آخر بلغة أجنبية وتأثر به، كما في دراسة تأثر طه حسين بالثقافة اليونانية (الحلواني، 2005، صفحة 155).

صلة عبر وسيط: كاتب تأثر بآخر عن طريق الترجمة، كما في دراسة تأثر المسرح المصري بموليير عبر ترجمات محمد عثمان جلال (الراعي، 1995، صفحة 78).

صلة موضوع مشترك :(Thematology) دراسة كيفية معالجة موضوع واحد (مثل دون جوان أو فاوست) من قبل كُتاب مختلفين في آداب مختلفة عبر العصور (بيكار، 1982، صفحة 201).

هذا الأساس يمنح المقارنة أرضية تاريخية صلبة، لكنه قد يحد من نطاقها ويحصرها في دائرة التأثير والتأثر.

أساس العلاقات النوعية) المنهج النمطي :(Typological/وهو الأساس الذي تبنته المدرسة الأمريكية. هنا، لا يشترط وجود صلة تاريخية، بل يتم الاختيار بناءً على تشابهات في البنية، أو الجنس الأدبي، أو الوظيفة الاجتماعية، أو الحالة النفسية التي يعبر عنها النص. يمكن أن تكون هذه التشابهات:

تشابه في الجنس الأدبي :(Genology) مقارنة بنية رواية النهر (Roman-fleuve) عند نجيب محفوظ ورومان رولان (اللطيف، 2012، صفحة 240) .

تشابه في البنية السردية: مقارنة بنية الرحلة في "رسالة الغفران" للمعرّي و"الكوميديا الإلهية" لدانتي، بغض النظر عن الجدل حول التأثير المباشر (بدوي، 1977، صفحة 99).

تشابه في السياق الاجتماعي-التاريخي: مقارنة الرواية التي نشأت في ظل ظروف الاستعمار في إفريقيا وأمريكا اللاتينية، لكشف التشابهات في استراتيجيات المقاومة السردية .

هذا الأساس يفتح آفاقاً واسعة للمقارنة، لكنه يتطلب من الباحث حذراً شديداً لتجنب المقارنات القسرية، وضرورة التأسيس النظري المتين الذي يبرر وضع هذين النصين المتباعدين جنباً إلى جنب (ستيفنز، 2001، صفحة 60) .

المطلب الثاني: مستويات التحليل المقارن: الموضوعات، الأجناس، والتيارات

بعد اختيار المتن، يجب على الباحث أن يحدد مستوى التحليل الذي سيركز عليه. يمكن إجراء المقارنة على مستويات متعددة، أبرزها:

مستوى الموضوعات :(Thematology) وهو من أقدم فروع الأدب المقارن. يركز على تتبع "موضوع" (Theme)أو "موتيف (Motif) "معين عبر آداب مختلفة. يمكن أن يكون الموضوع شخصية أسطورية (بروميثيوس)، أو شخصية نمطية (البخيل)، أو فكرة مجردة (تمرد الإنسان على القدر)، أو صورة مكان (صورة البندقية في الأدب الأوروبي). لا يكتفي هذا التحليل برصد وجود الموضوع، بل يحلل "كيفية" معالجته والتحولات التي طرأت على دلالته عند انتقاله من ثقافة إلى أخرى، وما تكشفه هذه التحولات عن خصوصية كل ثقافة (فرنكل، 1995، صفحة 310).

مستوى الأجناس الأدبية :(Genology) يركز هذا المستوى على مقارنة تطور الأجناس الأدبية (الملحمة، الرواية، المسرحية، السيرة الذاتية) في آداب مختلفة. يمكن أن يدرس كيف نشأ جنس أدبي معين (مثل الرواية) في سياق ثقافي (أوروبا) ثم انتقل إلى سياقات أخرى (العالم العربي)، وما هي التعديلات والتحويرات التي طرأت عليه ليتلاءم مع البيئة الجديدة. كما يمكنه مقارنة نوعين فرعيين داخل الجنس الواحد، مثل مقارنة الرواية التاريخية عند والتر سكوت وجرجي زيدان (المودن، 2008، صفحة 175). هذا المستوى يساعد على فهم ديناميكيات التطور الأدبي وكيفية تشكل التقاليد الأدبية.

مستوى التيارات الأدبية :(Periodization) يتناول هذا المستوى دراسة التيارات والمدارس الأدبية الكبرى (مثل الباروك، الكلاسيكية، الرومانسية، الرمزية) كظواهر عابرة للقوميات. يدرس الباحث خصائص تيار معين في مركز نشأته (فرنسا مثلاً بالنسبة للرمزية)، ثم يتتبع كيفية انتشاره وتلقيه وتكييفه في آداب أخرى. على سبيل المثال، دراسة "الرومانسية العربية" ومقارنتها بالرومانسية الأوروبية، لتحديد نقاط التشابه والاختلاف، وكشف ما إذا كانت مجرد تقليد أم أنها كانت استجابة لحاجات تاريخية واجتماعية محلية (القاضي، 2016، صفحة 118). هذا التحليل يتطلب ربطاً قوياً بين الظاهرة الأدبية وسياقها الفكري والتاريخي العام.

المطلب الثالث: الأداة المنهجية: بين المقاربة التاريخية والبنيوية والنقد الثقافي

إن تحديد المنهجية التي سيتبعها الباحث في تحليله هو أمر حاسم لعمق الدراسة ومصداقيتها. يمكن للباحث المقارن أن يستلهم أدواته من مناهج نقدية مختلفة:

المقاربة التاريخية-الفيلولوجية: وهي المقاربة الكلاسيكية التي تركز على السياق التاريخي للنصوص، وتحقيق مصادرها، وتوثيق علاقات التأثير والتأثر. هي منهجية ضرورية في الدراسات التي تعتمد على الأساس الجيني، لكنها قد تغفل الجانب الجمالي والبنيوي للنص إذا اكتفت بالوصف التاريخي (لانسون، 1925، صفحة 88).

المقاربة البنيوية والشكلانية: تركز هذه المقاربة على تحليل البنى الداخلية للنصوص الأدبية (بنية السرد، النظام الصوتي، الأنساق الرمزية) بمعزل عن سياقها الخارجي. في الدرس المقارن، يمكن استخدام هذه المقاربة لمقارنة البنى السردية في روايتين من ثقافتين مختلفتين، أو لمقارنة استخدام تقنيات أدبية معينة. هي تمنح التحليل دقة وموضوعية، لكنها قد تقع في فخ "الشكلانية الفارغة" وتتجاهل أن الأشكال الأدبية نفسها تحمل دلالات تاريخية وثقافية (جينيت، 1972، صفحة 150).

مقاربة النقد الثقافي وما بعد الكولونيالية: وهي المقاربة الأكثر شيوعاً في الدراسات المقارنة المعاصرة. هي لا تفصل النص عن سياقه، بل تعتبره "ممارسة خطابية (Discursive Practice) "تتشابك فيها علاقات القوة والمعرفة. تستخدم هذه المقاربة مفاهيم مثل "الخطاب"، "التمثيل"، "الآخرية"، "التهجين" لتحليل النصوص المقارنة. فبدلاً من مجرد مقارنة صورة الشرق في الأدب الغربي وصورة الغرب في الأدب العربي، تسأل هذه المقاربة عن "الوظيفة الأيديولوجية" لهذه الصور، وكيف تخدم أو تقاوم علاقات الهيمنة (بابا، 1994، صفحة 201). هذه المقاربة تمنح الدرس المقارن بعداً نقدياً وسياسياً عميقاً، وتجعله مساهمة فعلية في فهم ديناميكيات العالم المعاصر (العطار، 2002، صفحة 50).

إن الباحث المقارن المتمكن هو الذي لا يتقوقع داخل منهجية واحدة، بل يستطيع أن يوظف أدوات من مقاربات مختلفة بشكل تكاملي، فيستخدم الدقة الفيلولوجية لتوثيق الصلات، والأدوات البنيوية لتحليل الأشكال، والرؤية النقدية الثقافية لتأويل الدلالات وربطها بالسياق الأوسع (لويزا، 2019، صفحة 33).

المبحث الثالث: الأبعاد المعرفية والغايات الحضارية للدرس المقارن

يتجاوز هذا المحور الجوانب التقنية للمقارنة ليبحث في الأهداف النهائية والقيمة المعرفية لهذا الحقل، مؤكداً أنه ليس مجرد تمرين أكاديمي، بل هو مشروع فكري يهدف إلى تعميق فهم الذات والآخر والعالم.

المطلب الأول: تجاوز النص إلى السياق: أهمية البعد التاريخي والاجتماعي

من أكبر المخاطر التي تواجه الدرس المقارن هو الوقوع في "المقارنة الشكلية" التي تقتلع النصوص من جذورها التاريخية والثقافية وتقارنها في فراغ. إن التشابه بين نصين قد لا يكون له أي دلالة تذكر إذا لم نفهم السياقات التي أنتجت كل نص. فالنص الأدبي ليس بنية لغوية مغلقة، بل هو نتاج لظروف اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وفكرية محددة، وهو في الوقت نفسه مساهم في تشكيل هذه الظروف (ماشيري، 1978، صفحة 94).

لذلك، فإن أحد أهم متطلبات الدرس المقارن هو "الوعي التاريخي .(Historical Consciousness) "يجب على الباحث المقارن ألا يكون خبيراً في أدبين فقط، بل في "حضارتين". عليه أن يفهم البنية الاجتماعية، والتحولات السياسية، والتيارات الفكرية السائدة في كل من الثقافتين اللتين يدرسهما. على سبيل المثال، عند مقارنة الرواية التاريخية في القرن التاسع عشر في أوروبا والعالم العربي، لا يكفي مقارنة تقنيات السرد، بل يجب فهم أن هذه الرواية في أوروبا كانت تعبيراً عن صعود الدولة القومية، بينما في العالم العربي كانت أداة لبناء وعي تاريخي حديث في مواجهة التخلف الداخلي والهيمنة الخارجية (لوكاتش، 1962، صفحة 244). إن فهم هذا الاختلاف في "الوظيفة" التاريخية هو ما يمنح المقارنة قيمتها الحقيقية (بدر، 1989، صفحة 160). هذا الربط المنهجي بين النص والسياق هو ما ينقل الدرس المقارن من مستوى الوصف إلى مستوى التفسير العميق.

المطلب الثاني: إشكالية الترجمة والاختلاف الثقافي: نحو مقارنة واعية بالخصوصية

يعتمد الدرس المقارن بشكل كبير على الترجمة، خاصة عندما لا يتقن الباحث لغات جميع النصوص التي يدرسها. لكن الترجمة ليست "نافذة شفافة" تنقل المعنى كما هو. إنها عملية "تأويل" و"إعادة كتابة" معقدة، تتأثر باختيارات المترجم الأيديولوجية والجمالية، وبالقيود التي تفرضها اللغة والثقافة المتلقية.

يجب على الباحث المقارن أن يكون واعياً بهذه الإشكالية وأن يتعامل مع الترجمات بحذر نقدي. عليه أن يسأل دائماً: ما هي استراتيجية الترجمة المتبعة؟ هل هي استراتيجية "تغريب (Foreignization) "تحافظ على غرابة النص الأصلي، أم استراتيجية "تبيئة (Domestication) "تجعله يبدو مألوفاً للقارئ الجديد؟ (فينوتي، 1995، صفحة 20). كما يجب عليه، قدر الإمكان، مقارنة ترجمات مختلفة لنفس العمل، والرجوع إلى النص الأصلي في المقاطع المفتاحية.

بالإضافة إلى الترجمة، هناك تحدي "الاختلاف الثقافي" العميق. فبعض المفاهيم أو القيم أو الأشكال الفنية قد تكون شديدة الخصوصية بثقافة ما، ولا يوجد ما يقابلها تماماً في ثقافة أخرى. المقارنة التي تتجاهل هذه

"اللامقايسة (Incommensurability) "قد تقع في فخ فرض مقولات ثقافة على أخرى، وهو شكل من أشكال الهيمنة المعرفية. المقارن الحقيقي لا يسعى إلى محو الاختلافات لصالح تشابهات كونية مجردة، بل يحترم "حق الاختلاف" ويعتبره هو نفسه موضوعاً للدراسة. ففهم "لماذا" لا يوجد جنس أدبي مثل "المقامة" في الأدب الأوروبي، أو "لماذا" تطورت التراجيديا في اليونان ولم تتطور في ثقافات أخرى، هو سؤال مقارن بامتياز (فيريه، 2010، صفحة 250).

المطلب الثالث: غايات الدرس المقارن: من إثراء الأدب القومي إلى بناء كونية حوارية

ما هي الغاية النهائية من كل هذا الجهد؟ الدرس المقارن له غايات متعددة على مستويات مختلفة.

على مستوى الأدب القومي: يساهم الدرس المقارن في إخراج الأدب القومي من عزلته، وفي فهمه بشكل أعمق. فعندما نقارن أدبنا بآداب أخرى، نكتشف جوانب من خصوصيته وتفرده لم نكن لنراها لولا منظور المقارنة. كما أنه يساعد على تجديد الأدب القومي من خلال الانفتاح على أشكال وتقنيات وتجارب جديدة من آداب العالم (حسين، 1950، صفحة 35).

على مستوى فهم الظاهرة الأدبية: يساهم الدرس المقارن في بناء نظرية أدب أكثر شمولية وعالمية، تتجاوز النظريات التي انبثقت من دراسة الأدب الأوروبي وحده. فهو يختبر صلاحية المفاهيم النقدية الغربية في سياقات غير غربية، ويساهم في تطوير مفاهيم جديدة قادرة على استيعاب التنوع الهائل للإنتاج الأدبي الإنساني (أورباخ، 1953، صفحة 557).

على المستوى الحضاري والإنساني: وهذه هي الغاية الأسمى. في عالم تمزقه الصراعات القائمة على الجهل بالآخر والخوف منه، يقدم الدرس المقارن نفسه كمشروع "إنسانوي (Humanistic) "بامتياز. إنه تمرين على "الخروج من الذات" و"فهم الآخر من منظوره". هو يعلمنا أن ثقافتنا ليست هي المقياس الوحيد، وأن هناك طرقاً أخرى متعددة لرؤية العالم والتعبير عن التجربة الإنسانية. من خلال كشفه عن وشائج القربى بين الثقافات، وفي نفس الوقت احترامه لخصوصيتها، يساهم الدرس المقارن في بناء "كونية حوارية " (Dialogic Universalism)، لا تقوم على الهيمنة، بل على الاعتراف المتبادل والتثاقف الخلاق (كريستيفا، 1991، صفحة 102).

خاتمة:

في نهاية المطاف، يتضح أن الدرس المقارن أكثر من مجرد منهجية أكاديمية؛ إنه موقف فكري وأخلاقي. إنه دعوة دائمة لتجاوز الحدود، ليس فقط الحدود الجغرافية واللغوية، بل أيضاً حدود الذات وانغلاقها. من خلال ما يتطلبه من صرامة منهجية، وانفتاح فكري، ووعي تاريخي، وحساسية ثقافية، فإنه يشكل باحثيه ليكونوا مواطنين في "جمهورية الآداب العالمية."

لقد أظهر هذا البحث أن رحلة المقارن تبدأ من تحديد المفاهيم بدقة، وتمر عبر بناء المتن واختيار الأدوات المنهجية بوعي، لتصل إلى غايتها الأسمى في ربط الأدب بالحياة، والنص بالسياق، والخاص بالعام. إنه ليس مجرد موازنة بين نصوص، بل هو فن وعلم قراءة النصوص في علاقاتها المتشابكة، وهو بذلك يثري فهمنا

للأدب، ويعمق وعينا بتعقيدات التبادل الثقافي، ويساهم في نهاية المطاف في جعل العالم مكاناً أقل غرابة وأكثر قابلية للفهم المشترك.

قائمة المراجع:

أحمد شوقي. (1999). نحو مفهوم جديد للأدب العالمي. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

أحمد مستجير. (2011). المقارنة النقدية: من التشابه إلى الاختلاف. الأسكندرية: دار النهضة الحديثة.

أريش أورباخ. (1953). المحاكاة: تمثيل الواقع في الأدب الغربي. برينستون: مطبعة جامعة برينستون.

إليزابيث فرنكل. (1995). الموضوعات والموتيفات في الأدب العالمي: معجم. نيويورك: دار نشر غرينوود.

بول فان تيجم. (1931). الأدب المقارن. باريس: دار أرمان كولان.

بيير ماشيري. (1978). نظرية في الإنتاج الأدبي. لندن: روتليدج وكيغان بول.

جان بيير لومارشون. (1988). التأثير الأدبي: دراسة في منهجيات الأدب المقارن. باريس: منشورات فرنسا الجامعية.

جان كلود فيريه. (2010). المقارنة المعقولة: حدود وأبعاد الدرس المقارن. باريس: دار سوي.

جورج ستيفنز. (2001). المقارنة النوعية: أسس منهجية جديدة. نيو هيفن: مطبعة جامعة ييل.

جورج لوكاتش. (1962). الرواية التاريخية. بوسطن: بيكون برس.

جوليا كريستيفا. (1991). الغرباء عن أنفسنا. نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا.

جيرار جينيت. (1972). خطاب السرد. باريس: دار سوي.

حسن المودن. (2008). الرواية والتاريخ: قراءة مقارنة في أعمال سكوت وزيدان. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

خالد عبد اللطيف. (2012). بنية رواية النهر: محفوظ ورولان نموذجاً. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

ديفيد دامروش. (2003). ما هو الأدب العالمي؟ برينستون: مطبعة جامعة برينستون.

ريمون بيكار. (1982). مدخل إلى علم الموضوعات. باريس: دار النشر الجامعية.

رينيه ويليك. (1958). الأدب المقارن: أزمة ومستقبل. الولايات المتحدة الأمريكية: مطبعة جامعة كارولينا الشمالية، تشابل هيل.

سارة كوفمان. (2006). جمالية التلقي وتطبيقاتها في الأدب المقارن. كامبريدج: دار نشر كامبريدج.

سليمان العطار. (2002). النقد المقارن: رؤى ما بعد الكولونيالية. القاهرة: دار المستقبل العربي.

طه حسين. (1950). من أدبنا المعاصر. القاهرة: دار المعارف.

عبد الرحمن بدوي. (1977). دراسات في الأدب المقارن. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

عبد المحسن طه بدر. (1989). تطور الرواية العربية الحديثة في مصر. القاهرة: دار المعارف.

علي الراعي. (1995). المسرح في الوطن العربي. الكويت: عالم المعرفة.

غوستاف لانسون. (1925). منهج البحث في تاريخ الأدب. بارس: دار نشر غارنييه.

فاطمة الموسوي. (2014). شكسبير على النيل: تلقي وتبيئة التراجيديا في مصر. لندن: دار الساقي.

فرانكو موريتي. (2000). تخمينات حول الأدب العالمي. نيو لفت ريفيو.

فريدريك جيمسون. (1981). اللاوعي السياسي: السرد كفعل رمزي اجتماعي. إيثاكا: مطبعة جامعة كورنيل.

كلود بيشوا، و ميشيل روسو أندريه. (1987). الأدب المقارن. باريس: دار أرمان كولان.

لورانس فينوتي. (1995). أجندة المترجم. لندن: روتليدج.

ليلى الصباغ. (2018). الأدب العالمي في منظور مقارن. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

ماريا لويزا. (2019). التكامل المنهجي في الدراسات المقارنة الحديثة. لشبونة: مطبعة جامعة.
ماريو براز. (1970). الأدب العام والأدب المقارن: تحديدات. روما: الدراسات الأدبية.
منصور القاضي. (2016). الرومانسية العربية: أصولها وتحولاتها. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
نورثروب فراي. (1957). تشريح النقد. برينستون: مطبعة جامعة برينستون.
هانز روبرت ياوس. (1982). لتجربة الجمالية والتاويل الأدبي. مينيابوليس: مطبعة جامعة مينيسوتا.
هومي بابا. (1994). موقع الثقافة. لندن: روتليدج.
يوسف الحلواني. (2005). طه حسين واليونان: دراسة في التلقي الثقافي. القاهرة : دار مدبولي.